



يُستدل من خط سير الأزمة السورية أن لبنان سيكون الأكثر تأثراً بتداعياتها، وستزداد المخاطر عليه كلما طالت الأزمة. وإذا كانت النهاية المرجحة بل المؤكدة أن النظام السوري سيسقط في نهاية المطاف، فإن سيناريو هذه النهاية وشكلها سيتحكمان بالاحتمالات المتتصورة لانعكاساتها في لبنان وعليه.

الحلقة الأضعف

لا شك أن الدول الخمس المحاذية لسوريا استشعرت سخونة المواجهة الدائرة فيها، وربما تصلها، باستثناء إسرائيل، شرارات أخرى في المراحل المقبلة، سواء من الحجم المتعاظم للنازحين أو الاحتكاكات الحدودية وسيطرة الثوار على المعابر.

لكن الخطير الكردي الذي تعمّدت دمشق أخيراً تفعيله لن يؤدي إلى زعزعة الدولة القوية في تركيا، أما بالنسبة إلى العراق فإن الصيغة الهشة للتباشير الحالي بين المكونات معرّضة للهتزاز بفعل تأجيج المشاعر الطائفية والمذهبية، وقد يتأثر الأردن أقل أو أكثر نظراً إلى تفاعل أزمته الداخلية معحدث الإقليمي إلا أن منه سيبقى خطأ أحمر متمتعاً بضمان أميركي-إسرائيلي.

لذلك يبقى لبنان الحلقة الأضعف، وساحة مستباحة للنظمتين السورية والإيرانية اللذين يستخدمانه لأهداف شتى، مستغلين: أولاً: ضعف دولته وانحلالها جراء عقود من الهيمنة والوصاية السوريتين، وخروج غير سليم ومنسق من الحرب الأهلية، وكذلك بسبب الحالة المعقّدة التي ترتبّت على سلاح "حزب الله" منذ انتهاءه عام 2000 من تحرير الجنوب من الاحتلال

ثانياً: يستغل النظامان السوري والإيراني انقساماً بين الأطراف اللبنانية، وهو انقسام كانا ساهماً في بلوغه وتعديله بعد العام 2005 سواء لاحتواء تداعيات انسحاب الجيش السوري من لبنان، أو لتأمين شبكة أمان داخلية لـ "حزب الله" وسلاحه، وأيضاً لفرض دور وظيفة على لبنان بمعزل عن الإجماع الوطني.

ثالثاً: يشمل استغلال النظامين السوري والإيراني لهذا الانقسام إضعاف الجيش اللبناني وتهبيشه، واختراق الأجهزة الأمنية، والضغط على الوسط السياسي بتعزيز نفوذ الجهات الموالية لهما وعقاب المناوئين. وكانت تبعات اغتيال رئيس الوزراء السابق رفيق الحريري، من تحقيق دولي واتهامات أولية للنظام السوري لم تتبدد كلّياً، ثم اتهامات "مؤثرة" وجهتها المحكمة الدولية لعناصر من "حزب الله"، قد زادت الانقسام حدّةً ودفعت لبنان إلى حافة اقتتال أهلي.

ويصب في هذا الاتجاه الاتهامات الموجهة لوزير لبناني سابق، ميشال سماحة، بإشرافه على مخطط لاغتيال عدد من السياسيين، وجميعهم من فريق سياسي واحد.

رابعاً: نجح استغلال النظامين السوري والإيراني لهذا الانقسام في تمكين حلفائهم من سيطرة كاملة على الحكومة الحالية، وأيضاً في إحداث تغييرات في طبيعة النظام اللبناني ومصادر مقومات الاستقلال والسيادة، وبالتالي إحباط البحث التقليدي عن توافقات داخلية يفرضها التعايش الوطني عبر ما يسمى "الحوار الوطني".

فعلى سبيل المثال، يمكن للبنان في مراحل سابقة أن يواجه أي اعتداءات إسرائيلية بالاشتكاء إلى مجلس الأمن الدولي، أو بحث الجامعة العربية على نصرته، لكنه في الوضع الراهن مع تزايد الانتهاكات السورية وسقوط ضحايا مدنيين لا يُسمح لحكومته بالاحتجاج أو بتحذير دمشق ولا بمجرد التفكير باللجوء إلى المحافل العربية أو الدولية.

منذ اندلاع الثورة في سوريا أضيف محور جديد إلى محاور الانقسام بين اللبنانيين؛ فالفريق المعروف باسم 14 آذار يشمل السنة عموماً إلى جانب طيف واسع ومتتنوع من الطوائف الأخرى، وهو متضرر رئيسي من الهيمنة السورية- الإيرانية، وبعد أن خاض انتفاضة عام 2005 تحت شعار الخلاص من الوصاية واستعادة الاستقلال وجد نفسه تلقائياً إلى جانب الثورة السورية ومدافعاً عن أهدافها.

أما الفريق الآخر المعروف باسم 8 آذار، الذي يضم الشيعة أساساً إلى جانب فريق مهم من المسيحيين الموارنة، فيناوئ الثورة ويُخْفِي أهدافها ويرى مصلحته مع النظام السوري على المدى القريب والبعيد، كما يسانده في حربه ضد ما يعتبره "مؤامرة" عليه.

النَّأي بالنفس

في ظل هذا الانقسام استندت الحكومة اللبنانية الحالية إلى كونها موالية للنظام السوري أو قريبة منه، من أجل أن يُسمح لها بأن ترسم مسافة علنية لكن وهمية بينها وبينه، وهو ما عُرف بـ "سياسة النَّأي بالنفس" التي سهلت على لبنان إما التحفظ على القرارات التي تتخذ ضد النظام السوري في المحافل الدولية والعربية، وإما التهرب من التصويت معها أو ضدها.

ورغم الاعتراضات المبدئية، تشكّل نوع من التوافق على هذه السياسة باعتبار أنها تساعدها على إبقاء الاستقرار الضروري للاقتصاد الضعيف.

ولعل دوافع ثلاثة ساهمت في إقناع نظام دمشق بقبول هذه السياسة:

- أولها: أن الموقف اللبناني الرسمي يقي مفهوماً عموماً بأنه نأىً لمصلحة النظام السوري.
- الثاني: أن الاستقرار المنشود يدعمه ويوفر على حليفه الرئيسي "حزب الله" أعباءً لا يريدها لأنها تشغله وتضعف موقفه في المواجهة المستمرة مع العدو الإسرائيلي.
- الثالث: أن هذا الاستقرار يُبقي لبنان رئة ومنتفساً لسوريا بعد تراكم العقوبات الأميركيّة والأوروبيّة المركّزة على النظام

وأشخاصه وأعوانه وأجهزته.

لكن استمرار الأزمة أكثر مما كان متوقعاً لها، ويدع ظهور النتائج المؤلمة للعقوبات، وتفاقم الصعوبات أمام النظام بسبب عدم قدرته على الحسم، واحتدام الصراع الدولي للتضييق عليه، جعلت النظام يعيد النظر في أولوية الاستقرار وفي شروط قبولة صيغة "النأي بالنفس"؛ فمن جهة زاد مطالبه من الحكومة والأجهزة والجيش لمكافحة تهريب الأسلحة ومطاردة المعارضين واعتقالهم وتسلیمهم والتضييق على النازحين، ولاحقاً صار الرعايا العرب ولاسيما الخليجيين مستهدفين للخطف والاستجواب ما أدى إلى تخريب الموسم السياحي الذي تعول عليه شريحة كبيرة من اللبنانيين.

ومن جهة أخرى دفعه توسيع رقعة القتال في الداخل وازدياد الانشقاقات العسكرية والسياسية وارتسام احتمالات الانهيار وتراجع حظوظ الحل السياسي، إلى تفعيل سيناريوهات تصدير الأزمة، وحتى التفكير في ما بعد هذه السيناريوهات إذا لم تفلح، ولن تفلح، في تبديها.

لاشك أن الخط الأسهل، المفتوح والمتاح، لتصدير الأزمة يبدأ من لبنان، لكنه يصطدم بالضرورة بواقع أن البلد ليس دولة معادية، وب الواقع أنه إذا أراد التأثير باللعب على التناقضات الطائفية فإنه يمكن أن يثير فتنه سنية - شيعية، فيربك وبالتالي حللياً مثل "حزب الله" لا يزال يعيش التداعيات السلبية لـ "غزو بيروت" في السابع من مايو/ أيار 2008.

لذلك بدت طرابلس بؤرةً مناسبة، إذ تعيش فيها أقلية علوية موالية للنظام إلى جانب غالبية سنية متفاعلية مع الغالبية السنية السورية التأيرة على النظام، ثم إن موقعها الجغرافي القريب من سوريا قد يتيح للنظام التدخل عسكرياً لسحق السنة ولو بذرعة حماية العلويين.

بالطبع ثمة بؤر أخرى يمكن للنظام أن يشعها، خصوصاً أن لديه أدوات محلية، إلا أنها لا توفر مواصفات طرابلس إما لأن السنة فيها ليسوا مسلحين في وضعية قتالية أو لأن القتال فيها لابد أن ينقلب فتنه سنية - شيعية لا يريدها "حزب الله" حتى لو أرادها النظام السوري.

لا يعني ذلك تناقضاً بين الحليفين السوري والإيراني بل خلافاً في التكتيك؛ فإيران و"حزب الله" ملتزمان بدعم النظام السوري بكل الوسائل والأساليب، وفي المقابل لا يريان أن إنقاذه ممكن حتى بإشعال فتنه سنية - شيعية في لبنان، أو بالأحرى لا يريان أنها ضرورية - الآن على الأقل - إذ إنها ستفتح نوافذ لتدخلات خارجية، وربما تشكل خلفية تستغلها إسرائيل لشن حرب على "حزب الله" مستفيدة من انشغاله باضطراب الداخل اللبناني. ومعروف أن الموقف الإسرائيلي محسوم، فالسؤال عند تل أبيب ليس "هل" تشن حرباً كهذه؟ وإنما "متى" تشنها؟

لكن ما يؤرق "حزب الله" يتعلق بما يتربّط عليه حين يبدأ الانهيار الفعلي للنظام السوري، والسؤال المطروح:

ما العمل داخل لبنان؟ ما العمل مع "فلول النظام؟

يصعب القول بأن لدى الحزب خططاً نهائية جاهزة للتنفيذ، إلا أن المتداول أنه قد يعمد إلى انتشار أمني، وأنه ربما يقدم على ما يشبه انقلاباً سياسياً - أمنياً لاستباق أي ردود فعل تطرح نزع سلاحه، وأنه سيستعين بـ "الفلول" اللبنانية لفرض سيطرته. لكن كل الخطط المتصرّفة لا تستطيع أن تصمد أكثر من ساعات أو أيام، ولكي يكون لها مغزى لابد من ارتباطها بمشروع أكبر.

سيناريyo الدولية

هنا يثار السيناريو الذي برع بعض معالمه من خلال خطوط التماس القتالية وخريطة الأرض المحروقة التي رسمها ويرسمها النظام السوري بغازات التدمير المنهجي والمجازر المبرمجة لاقتلاع السكان وتهجيرهم من مناطق معينة. فالهدف كما تمكّن قراءته على الخريطة هو رسم حدود "الدولية العلوية" لتدأ من دمشق وتمتد إلى حمص فمنطقة الساحل الغربي حيث تتركّز الأقلية العلوية وبعض الأقلية المسيحية.

ما علاقـة ذلك بـلـبنـان؟

إذا أتيـحـ لـلنـظـامـ أنـ يـفـرـضـ مـسـاـوـمـةـ دـولـيـةـ لـإـقـامـةـ هـذـهـ الدـوـلـيـةـ، وـفـقـاـ لـلـخـرـيـطـةـ الـتـيـ يـتـخـيـلـهـاـ، بـمـسـانـدـةـ رـوـسـيـةــ إـيرـانـيـةـ، فـإـنـ المـدـىـ الـحـيـوـيـ الـبـرـيـ لـهـاـ سـيـكـونـ لـبـنـانـ، خـصـوصـاـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـشـرـقـيـةـ الشـمـالـيـةـ كـحـدـودـ لـابـدـ تـكـوـنـ آـمـنـةـ وـمـوـثـوـقـاـ بـمـنـ يـسـيـطـرـ عـلـيـهـاـ أـيـ بـالـشـيـعـةـ وـ"ـحـزـبـ اللـهـ"ـ، وـكـذـلـكـ مـنـاطـقـ الـشـمـالـ الـأـقـرـبـ إـلـىـ الدـوـلـيـةـ الـمـتـخـيـلـةـ.

قد يـبـدـوـ هـذـاـ السـيـنـارـيـوـ غـيـرـ وـاقـعـيـ، لـكـنـ أـكـثـرـ الـأـسـئـلـةـ الـتـيـ تـرـدـدـ فـيـ الـلـقـاءـاتـ الدـوـلـيـةـ، هـوـ: كـيـفـ يـمـكـنـ حـمـاـيـةـ الـعـلـوـيـينـ وـسـائـرـ الـأـقـلـيـاتـ بـعـدـ سـقـطـ النـظـامـ أوـ إـسـقـاطـهـ. وـالـأـكـيدـ أـنـ النـظـامـ يـنـتـظـرـ أـيـ مـسـاـوـمـةـ كـيـ يـطـرـحـ هـذـهـ الـورـقةـ، فـإـنـ نـجـحـتـ فـإـنـ سـيـطـرـةـ "ـحـزـبـ اللـهـ"ـ عـلـىـ لـبـنـانـ سـتـكـونـ شـرـطـاـ لـازـمـاـ وـضـرـورـيـاـ، وـلـاـ يـعـرـفـ عـنـدـئـلـ إذاـ كـانـ سـيـسـتـمـ عـنـصـرـ تـهـيـدـ إـلـىـ إـسـرـائـيلـ.

المـصـدـرـ: مـرـكـزـ الـجـزـيرـةـ لـلـدـرـاسـاتـ

المـصـادـرـ: